• الشيخ / أحمد بن حسن المعلم

إن غزوة الحديبية ، أو صلح الحديبية(١) ، قد نوه الله – سبحانه وتعالى – به في كتابه العزيز وسمّاه فتحاً مبيناً ؛ لكي ينصر الله على إثره رسوله نصراً عزيزاً ، قال تعالى : **﴿إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾**(٢).

فهو في غاية من الأهمية ، ولقد اهتم العلماء بهذا الفتح اهتماماً كبيراً ، واستخرجوا منه فوائد وأحكاماً ودروساً كثيرة ، وهذا الصلح مبني على أحوال مقدمة نختصرها لكم ، وهي أنه بعد معركة الخندق ، يقول أهل السير أن رسول الله ﷺ قال : «نغزوهم ولا يغزوننا»(٣) ، أي: الكفار .

وهذا فعلاً الذي حدث ، فإنه بعد معركة الخندق لم تغز المدينة غزواً مباشراً ، أي بشكل يمكن أن يسمى غزواً أو يشكّل خطراً على المسلمين ، وإنما كان المسلمون هم الذين يغزون أعداءهم من الكفار في أنحاء الجزيرة العربية . وقبيل التوجه إلى مكة رأى النبي ﷺ رؤيا ، خلاصتها : أنه ﷺ رأى أنه هو وأصحابه سيدخلون المسجد الحرام ويطوفون به ويحلقون رؤوسهم (٤) .

وقد كانت نفوس المسلمين تتطلع إلى دخول مكة والطواف بالبيت الذي حرموا منه مدة طويلة ، فأخبر النبي ﷺ بذلك أصحابه ، وقرر أنه متوجه إلى مكة لغرض العمرة فقط ، لا يريد قتالاً ، ليس بغازٍ ولا فاتح ، وإنما يريد أن يعظم حرمات الله وشعائر الله ، وأن يطوف بالبيت ويصلي فيه كما في رؤيته التي رآها ، فيكمل عمرته ، وينحر هديه ويحلق رأسه . وهذا هو كل ما يريده النبي ﷺ ، فخرج ومعه – على اختلاف الروايات – ما يقارب ألفاً وأربعمائة رجل ؛ فعن جابر قال : «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة»(٥) .

وهناك روايات أخرى بالزيادة والنقصان قليلاً ، وذلك أن بعضهم ذكره بالحدس والتخمين ، وبعضهم ذكر ذلك بدون ذكر الأتباع والصبيان ، وبعضهم مع ذكرهم ؛ فحصل التفاوت في العدد .

وتوجه الرسول ﷺ ومن معه نحو مكة ، ووصل الخبر إلى قريش بخروجه ، فجمعت قريش جموعها ، ودعت أحلافها لكي يكونوا معها ويكوّنوا حلفاً كبيراً ومجاميع كبيرة ، كل ذلك لكي يصدوا رسول الله ﷺ وعباد الله المؤمنين من دخول مكة وإن كانت عمرة .

وكان النبي ﷺ قد أرسل عيناً له (جاسوساً) يتلمس له أخبار قريش ، فعاد إليه وأخبره أن قريشاً قد خرجت في جموعها ، وقد جمعت حولها الأحابيش (٦) ، وأنهم يريدون أن يصدوهم عن البيت

---

١– والحديبية هي بئر سمي المكان بها ، وقيل شجرة حدباء صغرت ، وسمي المكان بها ، قال المحب الطبري : الحديبية قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم ، ويسمى الآن الشميسي غرب مكة . انظر صحيح البخاري مع الفتح (٧ / ٤٣٩) ، وفتح الباري (٥ / ٣٣٣ – ٣٣٤) ، ومعجم البلدان (٢ / ٢٢٩) . قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : «تعدون أنتم الفتح فتح مكة ... الحديث» ، والشاهد في الحديث هو قوله : «والحديبية بئر فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا ، فجلس على شفيرها ...الحديث» ، ووردت آثار أخرى أنها بئر ، وهو الصحيح . وانظر تفسير ابن كثير وغيره ، لسورة الفتح .

٢– الفتح : ١ – ٣ .

٣– صحيح البخاري مع فتح الباري (٧ / ٤٠٥ ، رقم ٤١٠٩ – ٤١١٠) .

٤– ذكرت هذه الرؤيا في قوله تعالى : ﴿لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾(الفتح : ٢٧) .

٥– صحيح البخاري مع فتح الباري (٨ / ٥٨٧ ، رقم ٤٨٤٠) .

٦– الأحابيش وأحدها أُحبُوش – بضمتين – وهم بنو الهون بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة كانوا تحالفوا مع قريش ، قيل : تحت جبل الحبشي أسفل مكة ، وقيل : سموا بذلك لتحبشهم ، أي تجمعهم والتحبش التجمع ، والحباشة الجماعة . انظر السيرة النبوية من فتح الباري المجلد (١– ٢) الجزء الثاني ص ١٩٢ – ١٩٣ .

الحرام . فشاور النبي ﷺ أصحابه ، فقال : «أشيروا أيها الناس عليَّ ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين ، وإلا تركناهم

**إن صلح الحديبية، قد نوه الله - سبحانه وتعالى - به في كتابه العزيز وسمّاه فتحاً مبيناً؛ لكي ينصر الله على إثره رسوله نصراً عزيزاً، فهو في غاية من الأهمية، ولقد اهتم العلماء بهذا الفتح اهتماماً كبيراً، واستخرجوا منه فوائد وأحكاماً ودروساً كثيرة**

محروبين» . قال أبو بكر : «يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجهْ له ، فمن صدنا عنه قاتلناه» . قال : «امضوا على اسم الله» (٧) .

فأعجب ذلك رسول الله ﷺ واستمروا في الطريق ، وعندما اقتربوا من مكة إذا بهم تبلغهم أخبار أن طليعة قريش خالد بن الوليد والفرسان الذين معه قد يعتدون عليهم في الطريق ، وتحصل معركة قبل أوانها ، وقبل مكانها ، فأشار لهم الرسول ﷺ : «أن يسلكوا ذات اليمين في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية» ، وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية (٨) والمُرار – موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية (٩) – من أجل أن يتجنبوا هذه الطليعة وهذا الجزء من الجيش ؛ لأن الرسول ﷺ ليس حريصاً على القتال في هذه المرة ، وفعلاً ساروا في طريق آخر ، وشعر بهم خالد بن الوليد حين نظر إلى غبار الجيش ودواب المسلمين ، فوجد أنه أمام أمر واقع ، وعاد لينذر قريشاً أن محمداً قد أقبل .

وأسرع النبي ﷺ في مسيره ، ولما أراد أن يهبط من عقبة ثنية إلى الموقع الذي اختاره النبي ﷺ لمعسكره ، إذا بناقته – عليه الصلاة والسلام – تقف ، ولا تريد أن تتقدم ، فجاء الصحابة يزجرونها ويقولون : حل حل (١٠) . فألحت (١١) ، فقالوا : خلأت (١٢) القصواء (١٣) ، فقال النبي ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابس الفيل»(١٤) أي حبسها الله الذي حبس الفيل الذي جاء به أبرهة ليهدم الكعبة ، حبسه الله ، وأنزل عليه طيراً أبابيل ، فكذلك حبس ناقة رسول الله ﷺ عن التقدم ، حتى لا يكون هناك قتال ، ثم قال : «والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خُطة(١٥) يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»(١٦) ، وإن كانوا مشركين ، وإن كانوا معارضين لأمر يريده الله ، وهو أن نُتمَّ عمرتنا ، وإن كانوا واقفين أمام المسلمين ، ثم نحّى الرسول ﷺ ناقته عن الطريق فقامت ، وتوجه النبي ﷺ إلى الحديبية ، وضرب معسكره على حدود الحرم ، ونزلوا على بئر صغيرة ليس فيها ماء ، فشربوه بسرعة ، فغرس الرسول ﷺ فيه سهماً من كنانته ، وأخذ قليلاً من الماء ، وصبّه فيه ، فجعل الماء يفور منها ، حتى صدر عنها الناس ، وبعد ذلك بدأت الرُسل والمراسلات بين الرسول ﷺ والمشركين ، وأرسل كفار قريش للرسول ﷺ بديل بن ورقاء الخزاعي ، في نفر من قومه من خزاعة ، فقال له رسول الله ﷺ : «إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين»(١٧) .

فانطلق بديل بن ورقاء ، فحدثهم بما قال النبي ﷺ ، فقام عروة بن مسعود فقال : دعوني آته . قالوا : ائته . فأتاه ، فجعل يكلم النبي ﷺ فقال ﷺ نحواً من قوله لبديل ، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه ، قال : فو الله ، ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة : دعوني آتيه ، فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : «هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها له» (١٨) فبعثت له واستقبله الناس يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأُشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت .

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل عثمان بن عفان لكفار قريش ليخبرهم أنهم ما

---

٧- انظر البخاري مع الفتح كتاب : الشروط ، باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، وكذلك في ذكره في كتاب المغازي ، باب : غزوة الحديبية برقم (٤١٧٨ ، ٤١٧٩) .

٨- معجم البلدان لياقوت الحموي (٢ / ٨٥) ، والسيرة النبوية من فتح الباري (٢ / ١٩٤) .

٩- انظر لسان العرب ، لابن منظور ، حرف الثاء ، كلمة : ثنى .

١٠- كلمة تقال للناقة إذا تركت السير ، انظر السيرة النبوية مع فتح الباري (٢ / ١٩٤) .

١١- أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح . المرجع السابق نفسه ص ١٩٥ .

١٢- أي أصابها الخلاء وهو نوع من الوهن الذي يصيب الدواب . وفي اللَغة : خلأت الناقة تخلأ ، وهي ناقة خالئٌ بغير هاء إذا بركت فلم تقم ، والخلاء لا يكون إلا للناقة . انظر لسان العرب حرف الخاءَ كلمة خلأ .

١٣- القصواء : بفتح القاف بعدها مهملة ومد : اسم ناقة رسول الله ﷺ ، وقيل : كان طرف أذنها مقطوعاً ، والقصو : قطع طرف الأذن ، وزعم الدوادي أنها كانت لا تسبق ، فقيل لها القصواء ؛ لأنها بلغت من السبق أقصاه . انظر السيرة النبوية من فتح الباري (٢ / ١٩٥) .

١٤- الحديث في صحيح البخاري وأخرجه في كتاب : الشروط ، باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

١٥- خُطة : بضم الخاء المعجمة : أي خصلة ، وانظر السيرة النبوية من فتح الباري (٢ / ١٩٦) .

١٦- أي من ترك القتال في الحرم ، المرجع السابق ص ١٩٧ .

١٧- رواه البخاري ، وأخرجه في كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

١٨- رواه البخاري ، وأخرجه في كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

جاؤوا إلا للعمرة ، وأنهم لا يريدون قتالاً ، فاحتجزه الكفار عندهم ، فأشيع أن كفار قريش قد قتلوه ، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه على البيعة وبايعوه على روايتين ، رواية : أنهم بايعوه على عدم الفرار ، ورواية أخرى : أنهم بايعوه على الموت . وفي حديث أياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس . قال : فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾** قال : فبايع رسول الله ﷺ لعثمان ﵁ بإحدى يديه على الأخرى(١٩) . ثم أرسل كفار قريش سهيل بن عمرو ، فلما جاء قال النبي ﷺ : «قد سهل لكم من أمركم»(٢٠).

وعن البراء قال : لما أحصر النبي ﷺ عند البيت صالحه أهل مكة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثاً ، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح (السيف وقرابه)، ولا يخرج بأحد معه من أهلها ، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه .

قال لعلي : «اكتب الشرط بيننا ، بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله لبايعناك ، ولكنْ محمد بن عبدالله ، فأمر علياً أن يمحاها ، فقال علي : لا والله لا أمحاها . فقال رسول الله ﷺ : «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها ، وكتب : ابن عبد الله(٢١) واشترطوا عليهم عدة شروط :

١- ألا يعتمر هذا العام ، وأن يأتي السنة القادمة وليس معه سلاح إلا سلاح الراكب .

٢- أن من جاء من الكفار مسلّماً عليه أن يرجعه إلى الكفار ، وأن من رجع من المسلمين إلى الكفار فليس عليهم أن يرجعوه .

٣- أن من شاء أن يدخل في حلف محمد دخل ، ومن شاء أن يدخل في حلف قريش دخل .

فكان الرسول ﷺ يستجيب لهم والصحابة تضيق نفوسهم حنقاً من المشركين ، واستعظاماً لهذا التنازل من الأمر ، وجاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أُقاضيك عليه أن ترده إليّ . فقال النبي ﷺ : «إنا لم نقض الكتاب بعد» ، قال : فو الله ، إذاً لم أصالحك على شيء أبداً . قال النبي ﷺ : «فأجزه لي» ، قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : «بلى فافعل» ، قال : ما أنا بفاعل . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ، قال : فقال عمر بن الخطاب : فأتيت النبي ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقاً ؟ قال : «بلى» قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» ، قلت : فلم نُعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال : «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» ، قلت : أوليس كنتَ تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : «بلى» فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال قلت : لا . قال : «فإنك آتيه ومطوف به»(٢٢) .

ثم جاء عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للرسول ﷺ ورد عليه أبو بكر بمثل ما رد عليه الرسول ﷺ . وقال كذلك سهيل بن حنيف ، فعن شقيق قال : سمعت سهل بن حنيف يقول بصفين : أيها الناس اتهموا رأيكم ، والله لقد رأيتني يوم أبي جندل ، ولو أني أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته ...»(٢٣) .

وما كانت النتيجة من استسلامهم وطمأنينتهم بأمر رسول الله ﷺ ؟ أنه كان فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً ، فلما فرغ من كتابة الكتاب بينه وبين كفار قريش ، وأيقن الرسول ﷺ ألا سبيل له إلى دخول مكة قال الصحابة : «قوموا فانحروا ثم احلقوا» . قال : فو الله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً(٢٤).

**استسلام الصحابة رضي الله عنهم واطمئنانهم لأوامر الله ورسوله قادهم لفتح عظيم ونصر عزيز**

هذا ملخص صلح الحديبية وملخص البنود التي وردت فيه ، وأنا كما رأيتم جعلت العنوان وقفات عند هذه القصة ، وهذا الصلح مقتصر على الوقفات التربوية الدعوية فقط . فالعلماء رحمهم الله اهتموا بهذا الفتح ، واستخرجوا منه الأحكام الطويلة والكثيرة والعظيمة ، منها أحكام سياسية ، ومنها أحكام فقهية ومن كل الجوانب ، وكل أهل فن يستخرجون منه ما يناسب فنهم ، وأنا لا أريد أن أطوف بكل البنود ؛ فلست من العلماء الموسوعيين ، ولذلك فإننا سنقف فقط عند بعض الأمور من أمور الدعوة ، قرأنا فيها شيئاً وكسبنا في الخبرة منها شيئاً ، فمن هذه الوقفات ما يلي :

---

١٩- انظر تفسير ابن كثير لسورة الفتح الآية (١٨) .

٢٠- رواه البخاري ، وأخرجه في كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

٢١- أخرجه مسلم في كتاب المغازي ، باب : صلح الحديبية ، برقم (٤٦٠٧) .

٢٢- رواه البخاري ، وأخرجه في كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

٢٣- أخرجه مسلم في كتاب : المغازي ، باب : صلح الحديبية برقم (٤٦١٠) .

٢٤- رواه البخاري ، وأخرجه في كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

## • الوقفة الأولى: مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه:

فقد كان من أبرز ملامح هديه ﷺ مبدأ الشورى، وهو امتثال لما أمره الله - عز وجل - به كما في قوله تعالى:

**بالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتيه خبر الوحي صباحاً ومساء لكن هذا لا يمنعه من مشاورة أصحابه رضي الله عنهم**

﴿**وشاورهم في الأمر**﴾(٢٥)، وهذا هو الوصف العام والمنهج العام للأمة الإسلامية ولقادتها وأفرادها، كما أخبر به الله - عز وجل - في قوله: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾(٢٦)، فالإنسان لايركب رأيه، ولا يعجب بنفسه بأنه قد أحاط بكل شيء، فيستغني عن إخوانه الآخرين. انظروا إلى الرسول ﷺ في بداية الأمر عندما علم أن الأمر أقفل، وأن قريشاً تجمعوا لقتاله ولحربه شاور أصحابه ماذا يصنع؟ هل نذهب إلى هؤلاء الذين عاونوا قريشاً علينا فنجتاحهم ونأسرهم وذراريهم وأموالهم، فإن أقاموا مع قريش قاموا بشر مقام، وإن عادوا وجدوا أنفسهم بدون أهل وبدون مال؟ فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه بالرأي الذي هو أسلم، وهو أنهم يتجهون في طريقهم، ولا يبدؤون بشيء من هذا. وبعدها الرسول ﷺ - الذي يوحى إليه ويأتيه خبر الوحي صباحاً ومساء - يطلب من المسلمين ما يطيقون بعد كتابة الصلح، ثم يصل به الحال إلى أن يرجع إلى المرأة، والمرأة خفيفة الرأي، وإن كانت بعض النساء لسن كذلك، فمنهن من تعدل آراؤهن آراء كثير من الرجال، فكان أن أشارت له أم سلمة بالرأي السديد، وهو أن يبدأ بنفسه، ويكون قدوة.

إذن، فلنلتزم بمبدأ الشورى وعرض الآراء على الآخرين، ولا يعجب الإنسان برأيه، ولا يظن أنه قد أصبح قادراً على كل شيء، وأنه ليس محتاجاً إلى أحد من الناس، فالعُجب إذا دخل في الإنسان فإنه بداية خطر، ولأن من المهلكات إعجاب المرء بنفسه، وإعجابه برأيه.

## • الوقفة الثانية: عدم تمني لقاء العدو:

لما علم الرسول ﷺ بمجيء خالد في الطريق قاصداً صدهم، أشار لأصحابه أن يأخذوا ذات اليمين، وفي هذا إرشاد للمسلمين ولقادتهم أن لا يتمنوا لقاء العدو، وأن لا يعرضوا أنفسهم لآخر العلاجات؛ لأن القتال هو آخر العلاج، وفي الحديث قوله ﷺ: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(٢٧).

فلابد أن يحاولوا أن يصلوا إلى مرادهم ويصلوا إلى أهدافهم، بما هو أيسر وأرحم وأرفق بهم، وبمن يدعونهم، وإن كانوا أعداء للمسلمين؛ لأن المسلمين تنطوي قلوبهم على الرحمة والشفقة. فما الذي يريده المسلمون من قتال العدو؟ يريدونهم أن يدخلوا في دين الله عز وجل، ويكونوا من أهل الجنة. إذن ما كان فيه رفق، وما كان فيه سلامة للدماء، وما كان فيه راحة للنفوس وعدم تأجيج الصدور والمشاعر؛ فهو أولى.

فهذا مبدأ عظيم أن يتجنب الإنسان الفتنة، فهناك بابان للوصول إلى الهدف: باب يوصل إلى الهدف براحة وسلامة، وباب يوصل إلى الهدف، ولكن بمشقة وتعب وخسارة، وكلفة عظيمة و «ما خُيِّرَ الرسول ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً» (٢٨).

فلهذا، ونحن نرى في الآفاق ملامح وشعارات وعلامات تلوح بالفتن في كل مكان، يجب أن نتذكر أن الأعداء يريدون أن يجروا المسلمين إلى معارك خاسرة، حيث يدبرها الأعداء أنفسهم. معارك لم يُعد لها المسلمون عدّتهم، فيكون بهذا قضاء على المسلمين، لكن المسلم الواعي المتأسي بالنبي ﷺ لايدخل في معارك يعرف أن العدو هو الذي جره إليها، إنما هو الذي يختار المعركة، وهو الذي يختار المكان الذي يواجه فيه أعداءه، وهو الذي يُملي - ومن موضع قوة -على أعدائه ما يريد، لكن الذي يحصل الآن نوع من السياسات الهوجاء، والاستعجال والحماس الذي هو في غير موضعه، والعواطف التي لم تضبط بالعلم، ولم تضبط بالعدل المتربي على هدي النبي ﷺ، فتتأجج هذه العواطف وتشتعل، ويتحمس الناس ويثورون، فيدمرون بيوتهم بأنفسهم، ويجمعون الأعداء عليهم في مكان لايستطيعون أن يتحركوا منه، وبالتالي يقضون على بقية إخوانهم المسلمين في كل مكان.

## • الوقفة الثالثة: تعظيم حرمات الله:

في قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني اليوم خطة يعظّمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» المقصود من تعظيم حرمات الله هو: إقامة شرعه سبحانه وتعالى، وإزالة العوائق من طريقه. فإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى هذا بدون النهاية الأخيرة، وهي نهاية الحرب والقتال، فإن هذا أمر حسن، وهنا يرى الرسول ﷺ أنه أمام أعداء وأمام أناس يصدون عن شرع الله وعن دينه، لا يريدون لدين الله أن يظهر، لكن هناك أموراً قد يعطيهم إياها الرسول ﷺ فيها شيء من تعظيم حرمات الله، فكونه تعظيماً لحرمات الله من أن تنتهك فهم في بلد حرام وفي شهر حرام، وعباد الله المؤمنون أرواحهم غالية، وأيضاً هناك مؤمنون آخرون مختفون في مكة يمكن أن يصابوا بأذى.

إذن كل هذه أمور يحبها الله أن تسلم.

فلقد حلف رسول الله ﷺ أن أي شيء يؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف فإنه يعطيهم

---

٢٥- آل عمران: ١٥٩.
٢٦- الشورى: ٣٨.
٢٧- رواه مسلم وأخرجه في كتاب: المغازي، باب: كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء برقم (٤٥١٧).
٢٨- رواه البخاري وأخرجه في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ برقم (٣٥٦٠).

إياه ، ولهذا يقول ابن القيم – رحمه الله – إن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله أجيبوا إليه .

إذن نستفيد من هذا أن بعض البلدان التي رفضت الديكتاتورية والعنف والطاغوتية في أنظمتها ، ورفضت الكبت والحرمان توجد مجالات للدعاة في أن يغرسوا المفاهيم الصحيحة ، وأن ينوروا الناس ويعلموهم ، وأن يؤسسوا المؤسسات الإسلامية التي تخدم الأمة وتعين على تقريب اليوم الذي يكون فيه الحكم لشرع الله ، والدولة لدين الله ، والقيادة لعباد الله المؤمنين .

إذن ، على المسلمين أن يحرصوا على إطالة هذا الأمد حتى يتمكنوا من بناء أكبر ما يقدرون عليه مما يعين على رفعة الإسلام والمسلمين ، وألا يستعجلوا الأمر ، أو يريدوا أن يقطفوا الثمار قبل أوانها ، وقبل نضوجها ، فيقضى على ما عندهم من الإمكانيات ، ويضيق عليهم الخناق ، وهذا أمر مهم جداً ؛ لأنه لو نظرنا ما هي الفوائد العظيمة التي نشأت عن هذا الصلح الذي ظهر للمسلمين أول وهلة أنه تنازل ، وأنه إعطاء الدنية في دين الله ، لوجدنا أنه تحقق للمسلمين من المصالح العظيمة فيه :

١– أمن المسلمون جانب قريش ، وأكبر عدو لهم ، بل رأس الأعداء الذي يستطيع أن يجمع الناس حوله لقتال المسلمين ، فأمنوا أن يكون هناك حرب مباشرة بينهم وبين قريش .

٢– تفرغوا لأعمال أخرى ، تفرغوا للدعوة إلى الله ، اختلط المسلمون بالكفار يشرحون لهم هذا الدين ويفهمونهم مفاهيمه ، فتراسل الناس ؛ لأن هناك ناساً من الكفار قد تغيرت نظرتهم ، وأصبحوا يريدون أن يتثبتوا من الأمر من مصدره ، ولكن مع طول مدة الحرب لم يقدروا ، فلما وقفت وحصل الصلح ، توافد الناس من أقطار الجزيرة إلى عند رسول الله ﷺ يسألونه عن الدين ويبايعونه عليه ويسلمون ، ثم يعودون لينشروا الدين في نواحيهم وبلدانهم .

٣– تفرغ النبي ﷺ لعدو آخر ، وهم اليهود الذين كانوا حلفاً مع قريش يتحركون بتحركهم ، فحيّد المشركين لينفرد بهم ، وفعلاً فتح الله عليه خيبر .

إذن ، فالمسلم الذي يجد نفسه أنه يمكن أن يعيش في جو من الأجواء يستطيع فيه أن يختلط بالناس ، ويمكنه من الدعوة إلى الله ، ونشر مفاهيم الدين الصحيحة ، وإلغاء المفاهيم الخاطئة ، وبناء المؤسسات التي تخدم الدين ، عليه أن يحرص على بقائه واستمراره ، ويستغل الوقت حتى لا يفاجأ يوماً من الأيام بانقلاب الأوضاع قبل أن يمكن لشرع الله ولدين الله .

## ● الوقفة الرابعة: مواجهة السلطة الروحية:

كيف وقف رؤساء الوفود وأصحاب الرئاسات والزعامات الدينية في وجه الحق؟ في وجه الإسلام؟ في وجه دين الله؟ فقريش كانت المسيطرة على المسلمين وعلى نفوس العرب ، وكانت لها سلطة روحية في الجزيرة العربية ، وبهذه السلطة الروحية أصبحت قريش أفضل قبيلة وأكبر قبيلة عند العرب . كل العرب يطيعون قريشاً ولايطيعون غيرها من القبائل ، إذن هناك سلطة تتبعها قريش لتسيطر على العرب ، وهذه السلطة اكتسبوها بمجاورتهم للبيت ، وبنسبتهم إلى إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام (النسب الشريف) ، وهناك دعايات يدعونها لأنفسهم ، إشاعات وقصص عن آبائهم وأجدادهم وما فعلوا ، وإشاعات أخرى أن من خالف قريشاً وقع به وحصل له كذا وكذا ، حتى كوّنوا لأنفسهم سلطة روحية عظيمة مبنية على باطل ومبنية على خطأ ، وظنوا بقاءها ، فإذا جاء النور تبين للناس وعرفوا أنهم كانوا واهمين ، وأن هؤلاء الناس ليسوا أهلاً لأن يكونوا مسيطرين على عقولهم وأرواحهم ، فلذلك وقفوا وقفة عنيفة في وجه الإسلام ووجه الدعوة إلى الله عز وجل ، وفي وجه محمد ﷺ وما يزال هذا الأمر يتكرر على مر العصور .

هكذا أصحاب النفوذ أصحاب السلطة ، سواء السلطة السياسية أو السلطة الروحية ، ما دام أنهم بنوا سلطاتهم على

> **الذي يحصل الآن نوع من الاستعجال والحماس الذي هو في غير موضعه، والعواطف التي لم تنضبط بالعلم، فتتأجج هذه العواطف وتشتعل، ويتحمس الناس ويثورون، فيدمرون بيوتهم بأنفسهم، ويجمعون الأعداء عليهم، وبالتالي يقضون على بقية إخوانهم المسلمين في كل مكان.**

غير ما يريده الله ، وعلى غير سنة رسول الله ﷺ ، وعلى غير هدي السلف الصالح ؛ فإنهم دائماً يقفون في وجه الحق بغض النظر عن أشياء ، ليس القصد قصد أشخاص ، وليس القصد قصد مناطق ، وليس القصد قصد مذاهب ، ولكن القصد هو الحفاظ على هذه السلطة التي بُنيت لهم ، وغُرست في نفوس وأرواح المسلمين .

فإنهم إذا تسامحوا مع دعاة الحق سوف يتجلى للناس الخطأ ، ويتجلى للناس أن هذه القداسة تعدت حدودها والمصالح التي كانوا يأخذونها بغير حق ، ولهذا يحرصون على بقاء باطلهم ، ولو بالصد عن سبيل الله ، ولو بمقاتلة الدعاة ، ولو كان قائدهم رسول الله ﷺ ، فلهذا لا نستغرب عندما نرى ونشاهد تكرر هذه المشاهد تكرر هذا الصد في كل زمان ومكان ، الصد عن دعوة التوحيد ، الصد عن السنة النبوية ، الصد عن المنهج المستقيم منهج السلف الصالح ، لانستغرب أبداً ذلك ؛ لأن الذين يصدون إنما يصدون ويدافعون عن سلطتهم وعن مصالحهم وعن مكانتهم ، وهذا شأن السلطات منذ أن بعث الله – عز وجل – نوحاً – عليه السلام – وإلى أن بعث الله – عز وجل – محمداً ﷺ وإلى أن يرث الله – عز وجل – الأرض ومن عليها ؛ لأن أهل الباطل لا يسمحون لأهل الحق ؛ لأن دعوة الحق تفضحهم وتفوّت عليهم

فرصاً ومصالحَ كانوا يتمتعون بها .

والحقيقة أن بعض الناس لو عقلوا لوجدوا أن في الاستسلام لأمر الله ، وفي الانصياع لشرع الله ، وفي التمسك بسنة رسول الله ﷺ أعظم شرف لهم في الدنيا

**يقول ابن القيم - رحمه الله -: إن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله أجيبوا إليه.**

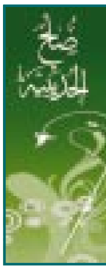

والآخرة ، لكن التفكير البشري الضعيف يظن دائماً أن المكانة والمصلحة دائماً تأتي في غير شرع الله عز وجل ، وعلى غير هدي النبي ﷺ !!.

### ● الوقفة الخامسة: إعلان الوضوح في الدعوة أو الهدف الحقيقي:

عندما جاء بديل بن ورقاء الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وقد شحن قادة قريش نفوس العرب ونفوس القبائل المحيطة بمكة بأن محمداً معتد ، وبأن محمداً يريد أن يدخل عليهم بالقوة ، أن يرهبهم ويذعرهم ، دعوة نشروها حتى يستفزوا الناس ضد هذا النبي الكريم ودعوته ، لذلك كان من الواجب على الرسول ﷺ أن يعلن هدفه الحقيقي ، فجاءت المناسبة عندما جاء هذا الرسول من قبل قريش ، فقال له : إنا لم نأتِ لحرب أحد ، إنما جئنا معتمرين .

فهذا أيضاً مهم جداً بأن لا يبقى المسلمون والدعاة إلى الله – عز وجل– تغلفهم الأوهام وتحيط بهم الشكوك ، وعندهم عدم وضوح ، بل يجب أن يكونوا واضحين ، وأن يعلنوا مبادئهم في وضوح تام ، وأن يعلنوها لكل من أراد أن يشوّه سمعتهم ، بأننا جئنا من أجل كذا وكذا ، وليس لنا هدف آخر ، وإذا بقيت الأمور غامضة استطاع الأعداء أن يشوّهوا ، استطاعوا أن يحرّضوا عامة الناس ضدهم ، وصفوهم بالإرهاب ، وصفوهم بالأصوليين ، بالعنف ، ولكن الإنسان عندما يوضح ، ويبين أني فعلاً موجود ، وأريد كذا وكذا يُصدق ، فإن هذا يزيل ويقطع الطريق على أعداء المسلمين الذين يريدون أن يؤلبوا الأمة ضدهم ، الذين يريدون أن يؤلبوا إخوانهم وأبناءهم وآباءهم ، هم الذين يريدون أن يتوِّهوهم ، فلذلك عندما يكون الإنسان واضحاً فإن ذلك ينفع نفعاً كبيراً .

### ● الوقفة السادسة: إزالة الشبه والاتهامات:

في أثناء المفاوضات أرسلت قريش رجلاً من كنانة ، وبنو كنانة مشهورون بأنهم يعظمون البيت ، ويعظمون الهدي ، ويعظمون مظاهر الإحرام ومظاهر السعي لعبادة الله – عز وجل – عند البيت الحرام ، فعلم رسول الله ﷺ أن هذا الرجل سيأتي ، فقال لأصحابه : إن هذا الرجل من قوم يعظمون البدن – أي الإبل المهداة إلى البيت – فبعثوا الإبل وهي مشعر عليها شعار ، واستقبله المسلمون يلبون ، فلما وصل إليهم بل رجع ، وقال : ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا .

فلهذا ينبغي لنا أن نستفيد من هذا استفادة كبيرة ، هناك اتهامات كثيرة ضد الدعوة ، ضد الصحوة ، ضد شباب الإسلام ، ينبغي أن نزيلها عن أنفسنا بالحق ، اذا هو ما فعله الرسول ﷺ وهو أسلوب رائع في بيان حقيقة ما عليه المسلم ، وفي إزالة الشُبه التي قد يكون وضعها الملبّسون في نفوس الأبرياء والبسطاء ، وأيضاً العمل على تفكيك المجتمع المعادي ، وإظهار ما فيه من تناقضات ، وهذا من رسول الله ﷺ على سبيل الصدق وعلى سبيل الحق ، وليس كما هو شامل كما يظن الكثير من المتلونين الذين يستخدمون التقية التي أصلها من مبادئ الرافضة ، وذلك بأن يظهر بالسنة عند أهل السنة ، وبالرفض عند أهل الرفض ، وبالخروج عند الخوارج ، وبتزيين الباطل عند أهل الباطل . ليس هذا الذي نريد ، وليس هذا الذي يدل عليه تصرف النبي ﷺ ، إنما النبي ﷺ يبدي ما عنده من الحق إذا شعر أن عدوه يظن فيه ظناً غير هذا .

ولو جئنا للنظر إلى واقعنا هنا في هذه البلاد ، وموقف خصومنا ، ومن هؤلاء الخصوم الذين يحاربون السنة ويحاربون التوحيد باسم الدين ؛ لوجدنا أنهم يستفيدون كثيراً من طروحات يطرحونها وشبهات ينشرونها ، فيزعمون مثلاً : أن أهل السنة غير معترفين بحقوق أهل البيت .

فلِمَ لا تكون هناك محاضرات في مجال حقوق أهل البيت لكي نقطع هذه الشكوك والشبهات ؟ فمثلاً يقولون : هؤلاء يبغضون الأولياء . سبحان الله ! من أولى بتعظيم الأولياء : أهل السنة أو أهل البدعة ؟ ومن هم الأولياء إن لم يكونوا من أهل السنة أصلاً ؟ فلماذا لا تجلّى هذه الحقائق؟! فهذه قضايا مهمة ينبغي أن نتنبه لها ، وأن نُجلّي الأمر للناس حتى لا يغرر عليهم ، فالحاصل أن نستفيد من هذه الأمور ، من قراءة سيرة الرسول ﷺ وليس فقط مجرد البحث فيها إن صح سندها أم لم يصح . نعم ، التأكد من صحة سندها مطلوب ، ولكن ليس الوقوف عند هذا ، وإذا صح سندها ، فماذا بعد هذه المرحلة ، أليس الاستفادة منها ؟

أليس أخذ الدروس والعبر منها ؟ وفي الجانب الآخر انظر إلى الكيد الذي يكاد للإسلام ، سيرة الرسول ﷺ هي التطبيق العملي لشرع الله . إذن ينبغي أن نعرف تطبيقه في السياسة ، وتطبيقه في الحكم ، وتطبيقه في الجهاد ، وتطبيقه في المعاملات ، وتطبيقه في الأخلاق ، وتطبيقه في العبادات ، ونعرف شمائله وفضائله ﷺ .

قالوا : سيرة الرسول ﷺ المولد والمولد فقط ، بحيث لا أحكام ولا أخلاق ولا معاملات ولاحكم ولا عبادة ، و لا شيء من يوم حملته أمه إلى يوم وضعته ، فماذا نستفيد من هذه المرحلة ؟ أليس هذا من وضع أعداء الله لصرف الناس عما ينفعهم إلى قشور؟ إذا كانوا يحبون المناسبات على سبيل المثال لماذا لا يتكلمون على ذكرى بدر والخندق ، وأحد والهجرة ؟ الذكريات التي فيها عمل وفيها منهج يقوم الناس عليه ؟! لا يفعلون هذا لأنه يضر أعداء الإسلام ، فلذلك يتجنبونه ويقفون عند المولد ؛ لأنه لا يبني

عليه المسلمون أحكاماً أو أعمالاً ، وإنما هو من صنع أعداء الله عز وجل ، يشغلون الناس عما ينفعهم بما لا ينفعهم . إذن من الذي لديه تناقضات في الفكرة ؟ انظروا لهذا الرجل من كنانة ، لما رجع إلى قريش ، فقريش لهم غرض خاص ، وهو أن يصدوا محمداً ومن معه عن دخول مكة من أجل أن تبقى لهم مكانتهم وسلطتهم على عقول وأرواح العرب . والعرب ، وهم ملبّس عليهم يظنون أن محمداً يريد أن يهدم الكعبة ، وأن محمداً يريد أن يخالف دين إبراهيم ، فلما فعل الرسول ﷺ هذه الحركة رجع الرجل ، وقال : ما على هذا حالفناكم ، تصدونهم عن البيت؟ ما على هذا حالفناكم . فلهذا ينبغي أيضاً أن يُستغل هذا الأمر ، هناك كثير من القبائل من بسطاء الناس يحسبون أن الوهابية أتوا لاقتلاع جذور الدين والصد عن هذا الدين ، فلَمَ لا نبين أن الأمر ليس كذلك ، وإنما هؤلاء الذين يتكلمون على الوهابية يعملون هذه الإشاعات والدعايات فقط للحفاظ على مكانتهم ؟!

**● الوقفة السابعة: عدم التسرع واستعجال الأمور:**

محاولة الأعداء جر المسلمين إلى المعركة قبل الاستعداد لها ، والواجب على المسلمين تفويت تلك الفرص ؛ ففي أكثر من مرة حاول المشركون جر المسلمين إلى هذه المعركة ، فخالد بن الوليد وجيشه عارضهم في الطريق ، وبعد استقرارهم في الحديبية جاء مجموعة من الكفار يريدون أن يخطفوا بعض المسلمين ، ويأخذوهم أسرى ، فتصدى لهم الحرس الذين وضعهم الرسول ﷺ لحراسة المعسكر ، وقبضوا عليهم وأسروهم ، فلهذا ، المتحمسون الذين إذا ظهر أمر ضخموه وجعلوه مبررا لتفجير الأوضاع ، والاستعجال على المنازلة والحرب مع أعداء الإسلام ؛ هؤلاء عليهم أن يعقلوا ، وأن يرجعوا إلى سيرة الرسول ﷺ كثيراً ، فهم يقولون : جهاد جهاد ، ونحن نرى أن الجهاد ذروة الإسلام ، وأنه لن ترفع راية الإسلام إلا بالجهاد الصحيح الصافي ، لكن ليس كل من أراد أن يعمل مشكلة سماها جهاداً ، أراد أن يثأر لنفسه أو لقومه أو لبلده سماها جهاداً ، أراد أن يخرج الكبت الذي في صدره سمى ذلك جهاداً ، لا ليس هذا هو الجهاد ، هذه فتن ، يجب أن نفرق بين هذا وذاك . والمسلم المخلص عليه أن يعي ويرجع إلى سنة النبي ﷺ وسيرته ؛ ليعلم أنه لا يمكن للمسلم أن يعرض نفسه وإخوانه المسلمين لمعارك خاسرة .

**● الوقفة الثامنة: جواز البيعة على أمر محدد غير البيعة العامة:**

جواز البيعة على أمر زائد عن الالتزام بالشرع ، فالصحابة – رضوان الله عليهم – قد بايعوه على السمع والطاعة والالتزام بالإسلام بشكله العام ، هذه هي البيعة ، لكن هنا بيعة زائدة ، وهي أنهم بايعوه في هذه المرة على أمر محدد ، وهو أن يقاتلوا حتى الموت . إذن ، هذا أمر زائد ، فهناك بيعة عامة تكون لإمام المسلمين وخليفتهم ، وهناك بيعات على أمور خاصة ، على عمل من الأعمال ، نتعاهد أن نقوم بها أو أن نتخلى عنها ، وهذا ليس مستغرباً في تاريخ المسلمين ، فكم من بيعة حصلت في زمن الرسول ﷺ على أمور أخرى غير البيعة العامة ، وكذلك بعد موته ﷺ ففي معركة اليرموك تبايع مجموعة من المسلمين على أن لا يفروا ، وفي غيرها من المواقع ، إذن فهذا الأمر أمر مشروع .

**● الوقفة التاسعة: إظهار هيبة القيادة الإسلامية المؤهلة:**

إظهار تعظيم وتبجيل القيادة الإسلامية المؤهلة ، وإظهار الالتفاف حولها في مواجهة الأعداء . الصحابة مع رسول الله ﷺ يعظمونه ويبجلونه دائماً ، لكن عندما صاروا أمام العدو وصاروا بشكل آخر ، المغيرة بن شعبة قد غطى رأسه بقناع وهو واقف فوق رسول الله ﷺ إظهاراً لهيبة الرسول ﷺ ولمكانته ، وإظهاراً أمام أعدائه أن أصحابه ملتفون حوله ، يتسابقون على نخامته ليتمسحوا بها ، إظهاراً للالتفاف فعلاً ،

ولذا قال عروة بن مسعود : والله ، لن يخلص إليه إلا بعد أن يقتل منكم عدده .

لكن المصيبة اليوم عندما تزداد الأزمات وتشتد بالمسلمين أن يزداد تفككهم ، يزداد الاستخفاف بالعلماء ، إذن ينبغي أن لا يطعن بعضنا بعضاً ، ويشكو بعضنا بعضاً ، لايجب أن يرانا الأعداء ونحن نستخف بعلمائنا ونستخف بقاداتنا وأهل الرأي منا ، يجب أن يرونا كما أراد الله لنا كالبنيان المرصوص .

أيضاً من الفوائد المهمة أن تسلم الأمة لقادتها ، القادة الذين وثقت في علمهم وإخلاصهم ، ووثقت في أنهم على المنهج المستقيم أن تسلم لهم ، وخصوصاً في الأمور الكبيرة ؛ فالصحابة سلموا للرسول ﷺ ، وإن كانت نفوسهم تضطرب ومشاعرهم تختلف كيف يرضون بهذا الأمر ؟ كيف يُرد المسلم الهارب بدينه للمشركين يعذبونه ؟ لكنهم سلموا واستسلموا ولم يظهروا التناقض أمام الأعداء ، فكانت النتيجة أن كان الفتح وكان النصر ، وكان العز للإسلام والمسلمين . اليوم الشباب يفكر بتفكيرِ الحماسةُ فيه كثيرةٌ والعلم قليل ، والتجربة غير ناضجة ، والاستعجال موجود ، يفكرون اليوم بهذا المنظار ، والعلماء يفكرون بنظر الحكيم وبنظر العالم ، وبنظر العليم . فمن هنا يحصل الخروج

على العلماء ، ويحصل اتهامهم ، هؤلاء يداهنون ، هؤلاء يخافون ، مواقفهم مضطربة غير واضحة . وهذا غير صحيح ، بل أنت تتهم نفسك أنت : إلى أين وصلت

**إذا كانوا يحبون المناسبات على سبيل المثال لماذا لا يتكلمون على ذكرى بدر والخندق، وأحد والهجرة؟ الذكريات التي فيها عمل وفيها منهج يقوم الناس عليه؟!**

بالنسبة إليهم وإلى ما وصلوا إليه من العلم ، وما وصلوا إليه من الحكمة والعمل العظيم للإسلام والمسلمين ؟ فهل يهدمون هذا كله بمهادنة ؟ هل يهدمون هذا كله بمجاملة الحكام ؟ وقد ورد معنا من قبل حديث سهل بن حنيف ، حيث قال : «أيها الناس ، اتهموا الرأي فقد رأيتنا ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ يوم الحديبية أمره لرددناه ، لكنهم سلموا فسلمهم الله وأعطاهم النتائج والعواقب السليمة ، لهذا لا ينبغي أن يقلل من شأن العلماء ، ولا أن يتهموا بالمهادنة للظالمين والدنية في الدين أبداً ، ويجب أن يظن بهم الظن الحسن ، وأنهم إنما يفعلون هذا من منطلق علمهم وخبرتهم وحرصهم على الإسلام والمسلمين .

## • الوقفة العاشرة والأخيرة: الرجوع إلى الراسخين في العلم في كبار الأمور:

لو لاحظنا فإن الصحابة معظمهم علماء ، وعمر بن الخطاب لا يشك في علمه ، ولكنه ليس في منزلة أبي بكر ولا بمنزلة الرسول ﷺ فقد استغرب إلى متى يتنازل الرسول ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ يجادله ويناقشه ، ثم توجه إلى أبي بكر. إذن ، نفهم من هذا شيئاً ، وهو أن الناس ، وإن كانوا على حد سواء ، إلا أن هناك فرقاً بين العلماء الذين لهم سابقة ، والعلماء الذين رفع الله لهم لسان صدق في المسلمين العلماء ، الذين قد توحدت عليهم قلوب أهل الخير وأهل السنة ، هؤلاء لهم وزنهم واعتبارهم ، ولو خالفهم علماء آخرون ، ولكن أقل درجة وأقل خبرة ، وخصوصاً في الأمور الاجتهادية ، والأمور الكبيرة ، والأمور التي يضيق فيها فهم الناس ، أو التي تتدخل فيها المشاعر ويتدخل فيها الحماس ، ويتدخل فيها حب ونشوة الشباب للنصر والاستعجال للأمور ، هنا نقول : إن الذين يفصلون في هذه الأمور هم الكبار وليس علماء الشباب ؛ لأنهم وللأسف الشديد ، وخاصة الحركات الصغيرة ، أصبحوا يرون أن العلماء لم يحققوا لهم بعض الأمور ، ولم ينجحوا أن يتصرفوا بعض التصرفات ، لذلك يضعون لهم علماء من أنفسهم ، شاباً من الشباب ، فيلمّعونه ، ويكون حاجزاً بينهم وبين العلماء الأصليين المعتبرين ، وهذا يدخل في قول الرسول ﷺ : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رُؤساء جُهالاً فسُئلوا ؛ فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» (٢٩).

إذن ، يجب أن نستفيد من سيرة الرسول ﷺ في مثل هذه المواقف التي بيّنها العلماء وبيّنوا أحكامها ودروسها وثمارها وعبرها ، وما يُفاد منها ، هذه هي الثمرة الحقيقية لدراسة سيرة الرسول ﷺ ، نستفيد منها ونقتدي بها ، ونستعين بسيرته على فهم واقعنا ، ونربط واقعنا وما كان عليه رسول الله ﷺ ، فذلك ما ينجينا من الفتن ويضيء لنا في هذه الظلمات ، ويأخذ بأيدينا إلى شاطئ الأمان إن شاء الله .

نسأل الله التوفيق والسداد ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد .

---

٢٩- رواه مسلم وأخرجه في كتاب : العلم ، باب : رفع العلم وقبضه وظهور الفتن في آخر الزمان ، برقم (٦٧٣٧) .